

الهوية الثقافية من الميثولوجيا العالمية الى المخيال العربي أسطورة "لالة ميرا" أمودجا

Cultural identity from mythology to the Arab imagination, the legend of Lalla Mira is an example

آية حفظ الله¹، آمال دهنون²

¹ جامعة محمد خيضر (بسكرة) aya.hafdallah@univ-biskra.dz

² جامعة محمد خيضر (بسكرة) a.dahnoun@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2024/01/23 تاريخ القبول: 2024/09/09 تاريخ النشر: 2024/12/01

ملخص: في ظل التنوع الثقافي العالمي والعولمة، وتأثيرها البارز في محاولة القضاء على الهوية الثقافية لضبط الوعي الجمعي للشعوب، تهدف الدراسة الى إبراز مدى تأثير الميثولوجيا العالمية في المخيال الشعبي العربي بواسطة الفنون المختلفة في ترسيخ الهوية الثقافية و الانفتاح على الآخر، من خلال تسليط الضوء على المشترك الثقافي وتقصي جذور الأساطير الشعبية التي يخلدها المجتمع الى اليوم، لاستنطاق رمزيتها التاريخية وتأثيرها على الوعي الجمعي الآني من أجل الحفاظ على الهوية الثقافية من التعتيم العالمي الذي ستحققه العولمة بتوحيد الهوية الثقافية العالمية.

كلمات مفتاحية: الهوية الثقافية؛ الميثولوجيا الأمازيغية؛ المخيال الشعبي؛ الأسطورة؛ لالة ميرا

Abstract:

In the midst of cultural diversity and globalization, and its remarkable influence in trying to eradicate the cultural identity, to control people's collective awareness, the study aims to highlight the influence of mythology and folk imagination by various arts in the entrenchment of the Amazigh cultural identity by highlighting the elements of cultural identity and exploring the roots of the popular myths that society is creating today, to explore its historical symbolism and influence on societal consciousness and preserve cultural identity from global obscurity.

Keywords: Cultural identity; Mythology amazigh; Folk imagination; Myth; Lalla Mira

المؤلف المرسل: آية حفظ الله، الإيميل: aya.hafdallah@univ-biskra.dz

1. مقدمة:

بعيدا عن الخوض في التعدد المفاهيمي للهوية ووظائفها الوجودية، يمكننا اعتبارها نتاجا لديناميكية متطورة زمنيا تولد أيديولوجيا وثقافة خاصة أصيلة الكرونولوجيا الحضارية للمنطقة، فهي راسخة في تاريخ التجمعات البشرية أيا كانت طبيعتها، فالوعي الجمعي يستحضر بطبيعته عناصر هويته الثقافية من الميثولوجيا، إذ كانت الأساطير والمخيال الشعبي في العصور الوسطى مرجعا تاريخيا أساسيا يكتب أصول الدول والممالك كأسطورة طروادة مثلا، فهو فن يصور هوية الأقوام البائدة التي لم تسلم لتناقلها الشفاهي بين الأجيال من الإضافات والاختصارات التي مكنتها من الانفتاح على المخيال الشعبي لرصد الحقيقة وأيضا على الأيديولوجيات الراهنة في المجتمع من أجل استيعاب الهوية الجماعية في العصور الوسطى لبناء هوية ثقافية راهنة وكذا سد فجوات التاريخ انطلاقا من البحث في الذات وعنهما.

وبالنظر إلى الهوية الثقافية في شمال أفريقيا فنجد أن لها أبعادا متعددة تحددها الاشتراكية في المميزات الأيديولوجية والعادات والتقاليد، اللغة والسلوك العام مما يخلق ميزة الفرادة التأويلية للموروث الثقافي المادي واللامادي، والقدرة على الخلق الفني بالاستناد إلى المخيال الشعبي الثري، ولأن الأسطورة تحديدا تعد عنصرا من العناصر الثقافية المشتركة للهوية الأمازيغية كأسطورة "لالة ميرا"...

حظيت هذه الأخيرة باهتمام المبدعين فكان لها نصيب من رواية "الذياع العاق" لجلال حيدر ورواية "بوح القصة" لمحمد الهجابي، وأغنية "لالة ميرا قناوية" وكذا أغنية "لالة ميرة" لحبيب بيلك إضافة للعديد من الأعمال الأخرى التي تعد وجهها من أوجه الوعي الثقافي بضرورة ربط التراث بالواقع، فما مدى تأثير المعتقدات الأسطورية العالمية على المخيال الشعبي الأمازيغي في ظل التطورات التكنولوجية الراهنة؟ وما مدى تأثيرات هذا الفن على الهوية الثقافية الأمازيغية في شمال أفريقيا؟...

2. إضاءات مفاهيمية حول الهوية الثقافية الأمازيغية والميثولوجيا :

1.2 الهوية:

بعيدا عن الخوض في رحلة تعدد المفاهيم الاصطلاحية لابد لنا من الكشف عن المعنى الأولي للهوية الشخصية أو ما اصطلح عليه "الوعي بالذات" والذي يتمحور حول التساؤل الوجودي العام "من أنا؟"، و"هل أستطيع إثبات كياني بدون الآخر؟".

تعتبر الهوية الشخصية نتاجاً آلياً للتنشئة الاجتماعية للفرد فتتمحور حول «كلمتين "الأنا والغير" أو "نحن وهم"، وهي بأسلوب آخر "الحديث عن التمايز"، ماذا يميز البشر بعضهم عن بعض. ماذا يميز الشعوب أو الأمم؟ فالهوية هي حقيقة إدراكية، إذ هي إدراك ووعي، ماذا يعرف الناس عن أنفسهم و ماذا يعرفون عن الغير؟» (دعاء بنا أحمد، 2019، صفحة 07)، إضافة إلى جميع محاولات التمايز المتوارثة فيما يتعلق بالآخر؛ فالهوية نقطة التقاء لجوانب ثقافية مختلفة كالدين واللغة والأرض والتاريخ من ناحية، والعادات والتقاليد والأساطير من ناحية أخرى (فتح المسكيني، 2011، صفحة 13) إذ ينظر إليها على أنها عدو أو خصم لإرادة المجتمعات الأخرى، ومن هذا المنطلق يتحول الماضي فيها إلى عنصر تهدئة ملائم فيما يتعلق بحاضر معقد في مواجهة مستقبل غير مريح لصعوبة تحديد ماهية العلاقة.

ولأن الثقافة محدد أساسي من محددات الهوية الشخصية ولأنها تتسم بتتبع طرق العيش باستمرارية لترصد وحدة الأقوام وحدة الوعي الشعبي، أصبحت الهوية الثقافية تحمل أبعاداً رمزية تاريخية إضافة إلى الخصوصية الفردية.

2.2 الهوية الثقافية :

وهي جزء مهم من الهوية الشخصية، تقتضي تفسيراً أو تبنياً لمعتقدات وسلوكيات عامة ديناميكية إذ تجسد الوجه المتطور تاريخياً والمسائر للأحداث والتغيرات القومية عند مجتمع بشري محدد (صديقة الفتني و حنان مالكي، 2021، صفحة 1200) فتحددها خصوصيات مميزة للفرد وللمجموعة على حد سواء، لتحقيق التمايز عن- الآخر انطلاقاً من التمايز العرقي والجنسي والديني والاجتماعي وغير ذلك من السمات المحددة للفرد، وتتجاوز الإضاءات المفاهيمية للهوية الثقافية لابد لنا من رصد أهميتها في التأثير

على الأحداث التاريخية والاستجابة الاجتماعية والتأثر بها ف«الحقيقة أن الهوية انتقائية بشكل تراثي تسمح بإمكانية الاختيار أو الانتقاء من الموروث بالرغم من أن الأمة لا تستطيع أن تختار تقاليدها» (جورج لارين، تر: فريال حسن خليفة، 2005، صفحة 290) والتاريخ الثقافي للجماعات البشرية إلى اليوم لم تحدد معالمه الثابتة المدرجة بالعصور الوسطى، حيث كانت مدوناتهم عبارة عن أساطير حوصلت تاريخهم الديني في قالب فني لا يخلو من الخيال.

3.2 الميثولوجيا الأمازيغية:

الميثولوجيا كلمة تنقسم في اليونانية إلى قسمين (Logos و Mythos) وتعني الكلام الرائع الذي كتبه اليونان والرومان على شكل أساطير تاريخية تسرد وقائع تأسيس الشعوب الأولى، وأساطير فلسفية مجازية ميتافيزيقية كالتي تقول أن المحيط أبو الأنهار، أو أن جبال الأطلس إله حلت عليه اللعنة، فهي «عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب أو هي الآلهة عندهم ... فالعرب ألهموا الأجرام وعبدوها وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه» (جرجي، 1923، صفحة 180) كما وجب على الكتاب تدوين أساطير تحفظ خوارقهم ومعارك أوطانهم فأنتجت الأساطير الأمازيغية القديمة مشتركة مع أساطير الرومان واليونان فأمن بها سكان شمال أفريقيا، وأصبحت خوارقها تتولى حكم الناس بأبطالها وألهتها وأنصاف الآلهة فكانوا يعبدونها ويعتزون بها كتاريخ مجيد لهم، يصعب تحديد فهم أصل الأساطير لتناقضها الشفهي إلى حين تدوينها من طرف كتاب اختلفوا في الطرح، ومن أقدمهم هوميروس "الإليادة" و "الأوديسا".

تعزز الأساطير الهوية الثقافية من خلال تجسيدها لتاريخ علاقة الإنسان القديم بالطبيعة والروح ومنه نسج كل شعب أساطير تحاكي ثقافته الخاصة، فكان الوجود الأمازيغي القديم بمناطق شمال أفريقيا حسب التقويم الأمازيغي «يبدأ من 950 قبل الميلاد، وهو العام الذي شهد انتصار الملك الأمازيغي شيشنق الأول على القوات المصرية التي يقودها الملك المصري رمسيس الثالث، الأمر الذي تبعه وصول شيشنق إلى العرش» (يسري) ويعتبرون هذا الانتصار بداية تاريخهم بالمنطقة التي شهدت الوجود الفينيقي والفرعوني واليوناني فالروماني، العثماني والفرنسي مما ساهم في التأثير والتأثر بهذه الثقافات الوافدة.

كانت الأساطير الأمازيغية القديمة تسرد نظرتها الخاصة عن الوجود قبل ظهور الديانات التوحيدية لتجعل منها إرثاً شعبياً شفها متناقلاً بين الأمازيغ إلى اليوم، فإلى جانب عبادتهم للشمس والقمر قام الأمازيغ بعبادة الجبال والكهوف، بل وكشفت النقوش عن أسماء مثل «أفريكا وإيفرو إله الجبل، أنزار إله المطر، ليلو إله الماء.. إلخ فتعدد الآلهة عادة ما يكون مجالاً خصباً لإنتاج الأساطير» (نصيرة ريلي، 2016، صفحة 327).

ولأن الأسطورة والفن قطبان ينشآن من الإنسان نفسه؛ فالأول يصور ما يفعل والثاني من يعرف كيف يستمتع ويحكي، فأصبحت اليوم يحملان بدورها هوية ثقافية خاصة تحمل تاريخ المنطقة المجسد من خلال الرموز التي خالطت المخيال الشعبي الأمازيغي.

4.2 المخيال الشعبي:

حين نتجاوز المفهوم العام له على أنه القيمة الفكرية للموروث الشعبي يتجسد من خلال «تقليد ومحاكاة لعادات وتقاليد شعبية موروثة وراسخة في المخيال الشعبي ولا يمكن تغييرها ببسر وسهولة حتى لو تغيرت الأجيال والنظم الاجتماعية والاقتصادية، لأن من خصائصها أنها تنتقل شعورياً أو لا شعورياً من جيل إلى آخر... لا تفقد خصوصيتها ومعانيها ونكهتها الشعبية... لأنها راسخة في المخيال الشعبي، وبخاصة إذا كانت شعائر وطقوساً مرتبطة بمشاعر دينية ووطنية واجتماعية» (ابراهيم الحيدري، 1999، صفحة 07) باعتباره روح الثقافة الشعبية وأصل الوعي الجمعي الذي يميز ثقافة مجتمع عن الآخر، فبعد الوجود والرضوخ البشري للنسق الطبيعي العام قديماً من ناحية الخلق وطبيعة التفكير، اتفقت نظريات التطور الثقافي على أن «الإنسان - في بداية تاريخه - كان مرتبطاً بالطبيعة ارتباطاً حميمياً... وأنه بعد ذلك اضطر إلى الانفصال عنها تدريجياً» (فايزة بن كروش، 2019، صفحة 129) فكل ما يتعلق بالبعد الثقافي الشعبي الموروث يمثل هوية خاصة تبناها الأجيال وتحييها من خلال تصوير رمزيها الشعبية خاصة على مستوى المشهد الأمازيغي في شمال أفريقيا، والذي لم يشكل إلى اليوم رغم جذوره الضاربة في القدم وحدة جغرافية مؤسسة، إلا أن وجوده يختلف كل اختلاف عن وجود الأقليات في العالم من حيث الاندماج العرقي والاجتماعي مع العرب ما جعل المخيال الشعبي الأمازيغي يتماهى والموروثات الثقافية

العربية لإنتاج فنون عربية بجذور أمازيغية ومن أبرز الفنون التي تغنت بالميثولوجيا الأمازيغية: الأدب، الموسيقى، الرسم والنحت .

3. الأبعاد الدلالية لتجليات أسطورة "لالة ميرا" في الفن التشكيلي، الموسيقى والأدب:

1.3 الكرونولوجيا الحضارية لأسطورة "لالة ميرا" من الأساطير العالمية الى المخيال الشعبي العربي:

حين نضبط أطر الدراسة برصد الهوية الأمازيغية ببعدها الثقافي وكذا السياسي بعيدا عن الأقليات المتعصبة نجد أن الربيع الأمازيغي الذي حركته التعددية الحزبية في الجزائر لم يعارض مقومات الهوية الوطنية بما تحمله من أبعاد رمزية وخصوصية محلية بالذات والدين والتاريخ المشترك.

تباين الطرح واختلف فيما يخص أسطورة "لالة ميرا" بين الثقافات العالمية إذ لم تكن مجرد نتاج فكري إبداعي فردي بل ضمنها المخيال الشعبي الجمعي إلى سلسلة الخوارق المقدسة التي قامت عليها الحضارات الأولى، ولأن الأساطير كجميع الحكايات القديمة كانت تنقل شفاهة اندثرت وحرفت أغلب المؤلفات ليتخذ المبدع من الخيال أداة لسد ثغرات التناقل، ومن هنا برزت العديد من الطروحات العالمية حولها :

1.1.3 رواية أوفيد: الذي يرجع أصل قصة "أدونيس" إلى علاقة زنا المحارم بين والدته "ميرا" وأبيها المدعو بـ "سينيراس"، كانت "ميرا" على وشك شنق نفسها للتخلص من وطأة معاناتها التي كانت تمر بها، لولا وصيفتها العجوز التي كشفت عن مصدر معاناة "ميرا"، ومثلما سارت الأحداث في رواية "أبولودورس"، رتبت مضاجعة "ميرا" مع أبيها دون علمه... استل سيفه لقتلها فهربت، ظلت تحمل سفاحا تجول به في كل مكان لمدة تسعة أشهر، ووفقا لتسلسل الأحداث في رواية "أبولودورس" أيضا، صلت "ميرا" منهكة القوى للآلهة التي أشفقت عليها فحولتها إلى شجرة... ظلت "ميرا" تحتفظ بجانب إنساني وهي شجرة جعلها تنجب، ومن دموعها استخلص عطر المر. (روبرت ايه سيغال، ترنجد سعد طنطاوي، 2017، صفحة 16.17)

2.1.3 رواية أبولودورس: كانت "سميرنا" - والدة "أدونيس" - منجذبة الى والدها بصورة لا تقاوم ثم صارت حبلى في طفل له، وعندما اكتشف والدها، استل سيفه لقتلها، هربت فلاحقها، وعندما كان على وشك الإمساك بها، ابتھلت إلى الآلهة لتخفيها عن الأنظار، فاستجابت الآلهة مشفقة عليها فحولتها الى

شجرة مر، ولم يمض عشرة أشهر حتى انشقت الشجرة فخرج من بطنها "أدونيس" (روبرت ايه سيجال، تر
مُجد سعد طنطاوي، 2017، صفحة 17.16).

3.1.3 رواية الأساطير الهندية : "Maira" ميرا بطل ثقافي لهنود الثوي غاراني، جلب الحضارة
والمهارات الزراعية والنظام الاجتماعي ويظن أنه هو الذي سبب الطوفان، الناجون أصبحوا أجداد قبائل
الثوي غاراني الهندية، وباعتبار "ميرا" فتى فقد وهب البركات للنبات من ثمار وفواكه، وقد حصل إثر قيام
بعض الأطفال الذين صادفهم بضربه، ولقي حتفه عندما حكم عليه بالحرق بعض الهنود، وهذا مألوف في
أساطير الأبطال الثقافيين القبليين، عاش بعد موته في مكان مفعم بالمسرة والسعادة، وهو موطن كل من
يموت من دون أن يرتكب خطيئة. (ماكس شابيرو و رودا هندريكس، 2018، صفحة 165)

4.1.3 الأساطير الشعبية المشرقية: تتبدى فيها "ميرا" أو "سميرنا" ابنة "ثياس" ملك آشور، التي دبرت
وسيلة سحرية فأخذت شراب الساحر العجوز، ثم سحرت نفسها الى شجرة مر، ثم من جذع شجرة المر
ولد "أدونيس" ... تترك (سميرنا) الأرض بحثا عن "أدونيس" بعد مقتله وخلال بحثها واختفائها، لا شهوة
ولا عاطفة ولا جماع جنسي بين رجل وامرأة، ولا شيء قابلا للإخصاب حين قيامة الإله ومواصلة نموه وفي
كل سنة تبكي وتنوح نساء آسيا الغربية في لبنان وسوريا وفلسطين على مقتل "أدونيس" (بعلي حفناوي،
2011، صفحة 85) ومنه ارتبطت فلسفة الحب والإخصاب بالرمز الأسطوري "ميرا" فمثلت عطاء
الأمومة ونعومة المرأة، كما تشير رمزية الشجرة الى المنح والعطاء والخير من ناحية... وشدة الانتماء
والارتباط بالأرض والمكان من ناحية أخرى .

5.1.3 رواية المخيال الشعبي المغاربي: كلمة "للا" أو "لاله" لقب رسمي لجميع ربوات الملوك العلويين
ولأميرات المملكة ... هي كلمة أمازيغية فريدة وعريقة جدا: ذات معاني سامية متعددة تدل على التكريم
والمكانة العظيمة التي يوليها الأمازيغ منذ القدم... لا تحمله سوى النساء الهامات والمؤثرات أو من الأسر
الكبيرة الصالحة في شمال أفريقيا عبر التاريخ ... وفي الثقافة الكناوية المغربية ينسب اسم "ميرا" إلى ملكة من
ملوك الجان، الذين يلعبون حتى وقتنا الراهن دورا أساسيا في المعتقدات الشعبية حيث يزعم أنها جنية بالليل
و امرأة بالنهار (عبد الله النملي، 2023)

حين نتحدث عن الفن فنحن بصدد الحديث عن أحد أجود طرق التعبير الإنسانية لما تحمله من جمالية تضرب بجذورها عمق التاريخ الإغريقي، وتحمل فلسفتها الخاصة التي تخلص في النهاية إلى أن الفنون حاجة إنسانية واكبت الوجود البشري قبل التنظيرات العلمية الراهنة، ولعل هذا ما يقودنا إلى العلاقة التوافقية بين الفنون والهوية الثقافية فهو الأداة التعبيرية والتواصلية الأبرز لتحقيقها.

2.3 حضور أسطورة "لالة ميرا" في الفن التشكيلي:

(picart)



انطلاقاً من أن الهوية انتماء والثقافة الاجتماعية تركز أساساً على التاريخ والموروث الشعبي خاصة في الرسم التجريدي، النحت والزخرفة...، فهي فنون تشكيلية تستقي دلالتها من الرموز الشعبية والدينية المتوارثة مع ما تقتضيه روح العصر، فتبني أشكالاً تعبيرية منها ما يلامس الروح الدينية الإسلامية وأخرى غير إسلامية مستقاة من الأساطير محملة برمزية متباينة، فالسمكة مثلاً « في الأساطير العربية والحضارة السامية والمعتقدات الدينية غالباً ما تدل على الانبعاث وتستعمل بعض الأشكال في إبعاد العين الشريرة كاليد والصليب والنجمة والعين» (قجال نادية، 2015، صفحة 67) هي شكل من أشكال الحفاظ

على الموروث الثقافي الشعبي ورموز تدرج مدلولاتها ضمن قوالب حلي ومجوهرات وأوان وألبسة تحمل بين طياتها أسطورة روحانية حول قوة خارقة ضد الحسد والطاقة السلبية فنجدها أيضا تتصدر غلاف كتاب الدكتور "ريم عصام أبو الوفا" المعنون بـ "السحر في التصوف اليهودي".

للفنون التشكيلية قدرة على استيعاب الهوية الثقافية والتغلغل في الجذور الأسطورية الأولى التي تماهت من خلالها الأساطير الأمازيغية باليونانية، إذ توضح الصورة بشكل جلي جزءا من أسطورة ميلاد "أدونيس" في الأسطورة اليونانية، ومن ناحية أخرى يجسد اللعنة التي سلطتها الآلهة على "لالة ميرا" فحولتها إلى شجرة .

وضمن الفن التشكيلي لا بد من الإشارة إلى أن أسطورة ميرا تحولت من رمزيتها التاريخية والأصالة اليونانية إلى لعبة الكترونية تحمل اسم "Mira the legend of the djinns" أي "ميرا وأسطورة الجن" هي اللعبة التي تنطلق أحداثها من اللغة والثقافة والتقاليد الروحانية والأسطورة الأمازيغية، حيث تنطلق أحداثها من لقاء يوبا بميرا الجنية التي تم سجنها في المقبرة بعد تدمير عالمها المسمي "amazghech" لتتطلق مع يوبا في رحلة البحث عن الوحش الذي سلبها وجودها وكنز أسرارها الدفين لتحقيق كيان فئة بشرية لاحقة (عالم يوبا)...

لعل المفارقة واضحة تماما فاللعبة متكونة من مراحل متعددة فيها شخوص صديقة وعدوة وأسلحة وطرائق قتالية خرافية للوصول إلى الوحش، فإذا دمر وحقت العدالة حسبهم فسيتشارك عالم "amazghech" عالم يوبا الذي يحمل رمزية الشخصية التاريخية لآخر ملوك نوميديا "يوبا الأول"، ومن هنا كانت الحادثة التاريخية للوجود الأمازيغي العربي وكذا البعد الأسطوري للملكة "ميرا" محركا أساسيا لإنتاج العمل الإلكتروني ولإحياء التراث اللامادي، ثم إن عصر العولمة وثقافة الصورة التي أصبحت سائدة اليوم بما تحمله من أيديولوجيات يتغذى بها الفكر البشري وخاصة الفئة العمرية بين الطفولة والمراهقة اعتمدت أساسا على الخلفيات الهوية العالمية لتحقيق التنشئة الهوية الموحدة من ناحية ولكسر القدسيات الدينية والأسطورية والطقوس الطائفية من ناحية أخرى.

3.3 الموسيقى الأمازيغية والرمزية الأسطورية "يا أبي اينوفا" و"لالة ميرا" أنموذجا:

كانت الأغنية الأمازيغية من أهم المجالات التي ساهمت في إحياء الهوية الثقافية خاصة فيما تعلق بالفلكلور واللغة والدين، ذلك من خلال استخدامها للتقنيات الحديثة العصرية لرصد بلاغة إنسانية دلالية ذات أثر معتبر، ومن أبرز الفنانين الذين حملوا على عاتقهم تدويل قضية الانتماء وتصدير الهوية الثقافية من خلال الموسيقى :إيدير، فرحات إيمازيغن، آيت منقالات وغيرهم .

فالموسيقى الأمازيغية انفردت بطابعها الرمزي الخاص، حيث غنى إيدير مثلاً أغنية "يا أبي اينوفا" التي تناولت التضحية التي تصور أزمة وجوده المغترب حضارياً، نذكر مثلاً موسيقى الكناوة التي «تجمع بين الفن الإفريقي والتأثر بالفن العربي الإسلامي، والعروض الثقافية البربرية المحلية ... تعكس الموسيقى الكناوية تجليات التنوع العرقي الإفريقي في بلاد المغرب العربي» (محمد جميل خضر ، 2023) مستحضرة رمزية الأساطير الإغريقية والأمازيغية.

ولأن الأغنية الأمازيغية فن رسالي يدافع عن الوجود الأمازيغي لما يقارب ثلاثة قرون من الزمن على هته الأرض، لا زال يسعى للحفاظ على موارثه الثقافي برصد رمزية الأسطورة الأمازيغية التي تغنت بها الموسيقى، إذ نجد مثلاً أغنية "إيدير" "يا أبي اينوفا"، التي خلدت أسطورة أمازيغية تسرد وقائع خالطت مخيال جدتي التي روت أن إسم الأسطورة "أساور غريباً" بل هي مأساة "غريباً" التي تسعى لتحصيل لقمة العيش لأبيها الشيخ وإخوتها، فتخرج صباحاً لتعود بعد غروب الشمس، مع وجود وحش الغابة في الأرجاء فحين تعود يختار والدها ما إذا كان الطارق وحش الغابة أم ابنته، فاتفقا على أن ترج أساورها التي حفظ صوتها ليفتح الباب و كلما دخلت عليه رددت ... أخاف وحش الغابة يا أبي ... لتكون رمزا للتضحية والقوة التي كبرت عليها المرأة الأمازيغية فتقول الأغنية :

افتح لي أرجوك الباب .. أفافا ينوفا

رجي أساورك رجي .. آآآآ يلي غريباً

جئت معي قصص الأجداد .. آفافا ينوفا

فلنحكيها للأحفاد .. آآآآ يلي غريباً

شيخ يتلفع برنوس .. يتأمل نجما و سماء

بجرجرة بردا و ثلوج .. بأوراس مطر و شتاء
والنار على الموقد تنشر دفئا في الأرجاء
و الفتية حول الجدة، تحكي حكايات الآباء

أوصلت الموسيقى الأمازيغية معانيها للعالمية بما تحمله من تقديس لوجودها وانتماءها العرقي والثقافي والحضاري فتلمس من خلال الفنون الموسيقية حالة من التعايش التام مع الآخر، بل التماهي شبه التام مع العرب فأصبحت اللغة العربية تحمل الثقافة الأمازيغية، والرمز الأسطوري الممزوج بالفن الصوفي للإشارة إلى الديانة الإسلامية فكانت المقاطع محملة بتضرعات صوفية استحضروا من خلالها الرسل الأنبياء، الأولياء الصالحين وكذا أشهر بنات الجن "ميرا" ونخص بالذكر هنا فرقة "فريكلان (freeklane)" الجزائرية حيث تعني "free" الحرية، و"klane" هو العبد بالتارقية والأمازيغية وكان أول ألبوماتها الموسيقية يحمل اسم "لالة ميرا"

المقطع الأول:

ساعة بالليله وا لالة ميرة، اللا ميرة، لكتاوية
تجيني في بالي بزين التصويرة، اللاميرة، اللاميرة
ري كريم هناني معاك خلاني، الصحرا نعيم حذاك بكل الواني
امين، امين، امين، امين، امين، امين، يارب العالمين

المقطع الثاني:

نبدا قولي كيف كافة البشر بسم الرحيم الرحمن
خالق كل شيء مزيان
وصلاتي على النبي العامر وجهه بضيا الجنان
وصحابه في كل زمان
يا بنت السلطان أنا خديم وأنتِ صحبك بالشان
بيني وبينك ببيان

زهرة دفلة في الكون قائمة زينك شحال بيان

مراره عذب شبان

مسارك كله فواح بالعطر ولباسك كله ألوان

ثبتي بعنان

...

ديتوني لطلاب الحضر قلتوا داوولنا فلان

ملسقام راهو تعبان

قالوا همه وهواه فالقصر، ودواه ادعوا الرحمان

يبلغ بنت السلطان

نخلف لوكان تكتبلي قدره نكسيك خير المرجان

جوهر ويدان ويدان

والله ما تستاهليش الغدر كون تبغيني لوكان

نسعد ما بقالي زمان

يا بنت السلطان، يا بنت السلطان

...

يا بنت السلطان فين البر والاحسان؟

من صغرك ماشي كيما البشر، وجهك قتال الاحزان

تربية فيك الامان

كبرت وحبك في قلبي كبر، وعليك نبات سهران

من كاسي نصب كيسان

ري اغفر لي ما خفي وما ظهر، ياك نتايا المنان

نسيني كل ما كان

عونك وحده يطيقني الصبر كل ما خلقتة بيان

كيف بحال بنت السلطان

وا جاوييني مور الحيطان (بنت السلطان

وا ناوييني في سهر الليل (بنت السلطان

وا صاوييني نضره ونفوت (بنت السلطان

وا جاوييني مور الحيطان (بنت السلطان (فريكلان، 2013)

تتاجي الأبيات "لالة ميرا" أو سيدة قبيلة البوابة الصفراء من "ملكة مرة" حسب الأسطورة الأمازيغية التي استلقت من الأسطورة اليونانية اسم شجرة المر التي تحولت لها "ميرا" حين حلت عليها لعنة الإثم، أضافت الأسطورة الأمازيغية أن "لالة ميرا" تنتمي لكوكب القمر والناس القمرين أصحاب القبول بروحهم المرح، عرفوا بزهرات الروح والنور والجمال والقبول، إضافة إلى طاقة الكشف التي تمتعت بها وراثت "ميرا"، قبيلتها تحكمها حاكمة هي صاحبة التاج الذهبي، اختلف الناس في وصفهم لكن هناك اتفاق نسبي في صفاتهم التي عينها المخيال الشعبي :

* "ميرا الحارثية" امرأة كبيرة في السن ترتدي الأصفر غالبا، ربانية مسلمة تبغي رحمة الله، الصلاة القرآن والتسبيح، الحنة و السواك وعندها النقاء و الثبات.

* "ميرا الشلحة" وهناك من يقول انها الأمازيغية تحب أغاني الشلوح واثرة الحكمة والراي والفقه فالقول معروفة بالتداوي بالقرآن وأحكامها الحياتية البليغة، كما تتسم بالفطنة والحكمة.

* "ميرا الصحراوية القناوية" سمراء البشرة أطلق عليهم الكحلات القناويات، يقولون "مرات صعيبة وحسابها صعيب قاسحة بالزاف" حسب المتعارف عليه في المخيال الشعبي، والصحراوية غليظة ترتدي الحايك الأبيض، ربانية قاسحة، والموسيقى الروحانية المتداولة لديهم الصلاة على النبي والحضور "لالة ميرا"، ولا يقبلون الهبات فهن ربانيات مسلمات، كما نجد ميرا الشيطانية الماسونية اليهودية وغير ذلك تتقن العديد من اللغات، وهن من أجمل الجميلات في عالم الجن حسب ما وصلنا إليه ...

* "ميرا العربية" مرات تحب السفر لكنها عادية غير ربانية مرات تدخل مع لالة عايشة مولات سبع ألوان رمز الجمال رمز البركة هي ولالة مليكة.

* "ميرا الزهوانية" بشوشة، ومزاجية، نشيطة سالبة العقول، الطايشة مولات الوشام (المعرفة؛ المعرفة) وبالعودة الى المقطعين الموسيقيين نجد الأسطورة الأمازيغية حية بشعبيتها خرافتها وبطولتها، إلا أن نظامها الديني عانق الإسلام رغم تضارب الروحانيات بين ابتهالات الله واستحضار ملوك الجن، فكانت الأغنية عبارة عن سرد لأصل الأسطورة الأمازيغية وكشف لجزء مهم من الثقافة الشعبية الأصيلة والتي لا تزال تقام لها احتفاليات استحضار خاصة بليالي الكناوة، فقبل في المقطع الأول أن "ميرا" تتحول في الليل إلى جنية يدعوها لتشاركه خلوته بتذرعات وأهازيج استعمل فيها الآلات الموسيقية الكلاسيكية بعيدا عن أدوات موسيقى الكناوة التي خصصت للتعبير عن الحرية بصرخات التحرر، فكان أداء التذرع والتوسل للرب باللقاء بعيدا عن الواقعية تماما فظلت النجوى تعانق آماله معانقة الخير والجمال التي تجلبه معها فحلوها حلول للخير والبركة حسب ما تشير له الأسطورة .

أما المقطع الثاني فجسدت من خلاله "ميرا" جمال المرأة الأمازيغية عموما مهما كان الانتماء (عربي، شلحي، كناوي، حارثي، صحراوي ...) ولأن المحكي الأسطوري لا ينفك عن أصل "ميرا" ابنة ملك الجن وسلطان "ملكة مرة" التي عرفت بجمالها لدرجة الفتنة، ولعل ما يشترك أيضا مع الأسطورة الإغريقية فتنتها التي جعلت أبرز أسماءها "سالبة العقول" "ذات الخدم" فيقول :

"أنا خديم و انت صحبك الشان"

ولأنها أيضا سيدة قبيلة البوابة الصفراء التي لا تنفتح إلا للرائحة الزكية الطيبة من المسك والبخور والعنبر والورود العطور الثمينة فيقول:

"بيني وبينك بيبان"

زهرة دفلة في الكون قائمة زينك شحال بيبان

مسارك فواح بالعطر.."

الدلالة الرمزية للأسطورة تشير الى أن روح "لالة ميرا" تسكن عشيقته ذات الجمال الذي تمنى رؤيته، وهنا جمع هذا العمل بين الأسطورة الأمازيغية القديمة، ورمزية جمال المرأة الأمازيغية، وكذا الحفاظ على الثقافة الدينية الإسلامية في المدائح الصوفية والتي تمثل جزءا من الهوية الأمازيغية.

3.4 "لالة ميرا" في الأدب الحديث رواية "المذايع العاق" لـ"جلال حيدر" أنموذجا :

لا نستطيع الفصل بين الأدب والأسطورة من ناحية الخلق، فالأول يرصد الصورة و الثاني يخلقها فهو سؤال الفلسفة و الوجود و سؤال الوجود نفسه أصل الهوية.

كان الأدب قديما مرتبطا ارتباطا وثيقا بالأسطورة التي قيل أنها رافقت الوجود الأول للإنسان على سطح المعمورة، ولا يزال إلى اليوم فنا رساليا يحقق جماليته الفنية، إلا أن الأسطورة ضمن الأشكال الأدبية عامة لا تمثل خيالا أدبيا بحتا، بل شكلا ثقافيا مستقلا يحمل حضارة أقوام بائدة فسروا العالم والوجود تفسيراً ميتافيزيقيا آمنوا به، فالأدب اليوم يعزز التقاليد الأسطورية ويحيي النظام الاجتماعي البائد من خلال طقوس خاصة، تم تناقلها من خلال الأدب فأثرت على الثقافة والهوية عموما كما تعد الأسطورة المادة الأولية الدسمة لأدب الخيال العلمي بعيدا عن الطبيعة العلمية فنجدهما يشتركان في: المغامرة، التحديات، التحولات الخطابية والشخصية.

أصبح الإنتاج الأدبي الأمازيغي مشيجا متجانسا بين العربية والأمازيغية خاصة في لغة "جلال حيدر" فكأنه مترجم آني للهجة الشاوية فيقول مثلا:

* يما ثلا تنكس أكنثا أزمور؟ (أمي كانت تنزع الزيتون هي الأخرى) (جلال حيدر، 2018، صفحة 05)

* ماغف ثسرکوسد (لماذا تكذب؟) (جلال حيدر، 2018، صفحة 147)

* آيغيول ذايا آكيقيمن أتتوليد فلارواد اتزنوزايد ايشرويقن؟ (أيها الحمار هذا ما تبقى لك لتفعل؟ تدور على الأزقة لتبيع هذه الملابس الرثة) (جلال حيدر ، 2018، صفحة 145)

يخلق هذا التجانس تجديدا حيويا فاعلا يؤثر تلقائيا على طبيعة تلقي الخطاب الثقافي المكون من قاعدة تاريخية مدعمة بالخيال، كما رصد لنا "جلال حيدر" وجها آخر لـ "ميرا" يحاكي الحكاية الشعبية التي

عمدت الى ترسيخ القيم و تصدير الثقافة الشعبية، فيقول «أنا مغرم بتلك الفتاة الجميلة، تغار منها نساء قبيلتها، فتاة وصل عليها الدور، لتكون قربان قومها للغول» (حيدر، 2018، صفحة 15) في هذا التقديم تجاوز الراوي استهلاكية الحكاية لإدراك دلالة السرد الخرافي لقصة "ميرا" تحديدا فاختار الجزء الأخير من القصة لاستنطاق الفوارق الأسطورية بين الحضارات .

ثم يسرد قصة "ميرا" التي تجاوزت ما تداولته مجموع الأساطير السابقة لتكون "ميرا" بالنسبة له «... قربان قومها للغول، كمن له اخوتها السبعة، قتلوه في حفرة، وأضرمو فيه النار، وعندما كان لحمه يشوى، أكلوا منه، و تحولوا الى طيور، أصبحت أختهم وحيدة، تهرب من كيد نساء قومها، حتى وصلت إلى أحد الموالين، واتفق أن تقوم برعي إبله، وبعد أسبوع أو أكثر، لاحظ أن النوق أصبحت هزيلة، كأنها لا تغادر نحو المراعي، إلا الناقة الطرشاء، فهي تعود ممتلئة، قرر اللحاق بها لمعرفة ما يدور هناك، شاهد ميرا تغني عن إخوتها السبعة، والنوق يتحلقن حولها ويكبن، إخوتها يحطون فوق أسنامهن، بكى ذلك الرجل، وساعدها بالذهاب إلى الحكيم، أعطاهها طريقة لإعادتهم إلى طبيعتهم» (جلال حيدر، 2018، صفحة 16.15) فكانت الحكاية الشعبية التي استندت مقوماتها على أسطورة "ميرا" تستحضر بين طياتها محاكاة شخصية "العلمي" لها، فجماها بجمال روحه، والحقده و الاضطهاد الذي تعرض له خاصة بعد زواج والده كان بمثابة الحياة البائسة القاسية التي عايشتها "ميرا" قبل تزويجها من الغول، كما عايش الثنائي اليتيم بتفاصيله يقول «هل يجب على اليتامى، أن يكونوا صغارا وضعافا، ويكون دائما بمناسبة أو دون مناسبة؟ لا أخفي عليكم، أردت في مرات كثيرة النيل منه، لكنني عجزت.» (جلال حيدر، 2018، صفحة 37) الا أن يأس "ميرا" من الحياة جعلها تقبل أن تكون قربانا للغول لولا اخوتها، و "العلمي" سيكون بنفسه قربانا للغول أو للحياة المأساوية التي يعايشها الشاوية عامة... فلعنة "ميرا" حلت على أرض الشاوية جمعاء باعتبار روح الأخوة التي يحظى بها الأمازيغ...

حكاية تكاملت معالمها عبر الزمن فالنص يخاطب الماضي، ولا يوجه الى الآخر بل خطابه للذات الشاوية تحديدا الى جانب (الشلوح، التوارق، المزابية، القبائل) ضمن النسق الأمازيغي العام حيث تمثل الرواية رسدا للواقع واستباقا للأحداث المحتملة، وحين نتطرق الى دور الأسطورة..دلالته وكذا فاعليتها

نعود الى الاسم "ميرا" وهو اسم أمازيغي قديم يعني الفائدة، والمرأة الأمازيغية عرفت بقوتها في المواجهات الثورية منذ القدم من أمثال "الكاهنة" و"لالة فاطمة نسومر" ومنه الدعوة للحفاظ على التاريخ والهوية من خلال الثقافة، ونبد التهميش الجنسي العرقي واثبات دور المرأة في المجتمع .

4. خاتمة:

نوجز اهم النتائج المتوصل اليها من خلال بحثنا في:

- 1/ تجاوزَ التعامل مع الأدب اليوم حدود دراسة النص بعيدا عن الروابط الثقافية من أجل البحث عن جماليات الأنساق المضمرة، خاصة إذا اقترن النص بالأسطورة والتراث والتاريخ والبحث عن الهوية، ففي خضم التطور التكنولوجي أصبحت سلطة الفنون السمعية البصرية تستسيغ القضايا الفكرية للخطاب الأدبي حفاظا على هوية ثقافية تدهمها موجات العولمة.
- 2/ المخيال الشعبي بما يحمله من أساطير حكايات خرافية و قصص ما هو إلا دلالة رمزية ومحصلة لواقع اجتماعي معاش بما تحمله المسرودات من حكم وإرشادات.
- 3/ تعتمد الفنون عامة إلى محاولة إثبات الهوية الثقافية وتصدير وجودها للآخر من خلال رصد الثوابت الهويةية المتوارثة عن التعاقب الحضاري " اللغة، الدين، الثقافة، التاريخ، الأرض " دون تزييف أو تشويه.
- 4/ على الرغم من اختلاف الثقافات العالمية وأساليب التعبير الفنية بين الرسم التشكيلي، الموسيقى والأدب، إلا أن أسطورة "لالة ميرا" اتفقت على مأساتها جميع الثقافات العالمية، وإذا اعتبرنا ذلك نتيجة طبيعية للحوار الحضاري الثقافي فهل نجد في هذا أحد مؤشرات نجاح العولمة في توحيد الثقافة العالمية ؟

5. قائمة المراجع:

المؤلفات:

- دعاء بنا أحمد، 2019، دراما المخابرات و قضايا الهوية الوطنية، العربي للنشر و التوزيع، مصر .
فتحي المسكيني، 2011، الهوية و الحرية نحو أنوار جديدة، جداول للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان.
زيدان جرجي، 1923، تاريخ اداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، مصر.
ابراهيم الحيدري، 1999، تراجيديا كربلاء سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، دار الساقى، بيروت، لبنان.

روبرت ايه سيجال، 2017، الأسطورة . مقدمة قصيرة جدا ، تر محمد سعد طنطاوي، مر ايمان عبد الغني نجم، مؤسسة الهنداوي، المملكة المتحدة.

بجلي حفاوي، 2011، تغريبية الأدب الكنعاني . ألف عام وعام على ضفاف المتوسط الافريقي، دروب للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة.

ماكس شابيرو ورودا هندريكس، 2018، معجم الأساطير، تر حنا عبود، دار مؤسسة رسلان و دار علاء الدين، سوريا، دمشق .

جورج لارين، 2005، الايديولوجيا و الهوية الثقافية - الحداثة و حضور العالم الثالث -، تر فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولي، مصر، القاهرة.

جلال حيدر، 2018، المذيع العاق، منشورات البغدادي، الجزائر .

المقالات:

ربلي نصيرة (2016) الاسطورة في المجتمع الامازيغي القديم، مجلة معارف، العدد 21، ص 327؛ الفتني صديقة و مالكي حنان (2021) الهوية الثقافية الجزائرية في زمن العولمة الثقافية، مجلة العلوم القانونية و السياسية، المجلد 12 (العدد 01)، ص 1200؛ قجال نادية (2015) اساليب اثبات الهوية الثقافية في الفنت التشكيلي الجزائري، جماليات، المجلد 1 (العدد 2)، ص 67؛ بن كروش فايزة (2019) ثقافة المكان في المخيال الشعبي : الحكايات العجيبة " نص عبد" انموذجا، مجلة بدايات، المجلد 1 (العدد 2)، ص 129؛ مواقع الانترنت:

محمد يسري (2022)، من هو ملك الامازيغ شيشنق ؟، <https://raseef22.net/article/>

عبد الله النملي (2023) أسطورة "لاله ميرة" .. عين ماء في المغرب يقصدها الناس بحثا عن الزواج و الشفاء من الأمراض / <https://arabicpost.net/opinions/2023/07/13/>

Bernard Picart (2006)، <http://www.uvm.edu/~classics/slides/c065.jpeg>، محمد جميل خضر (2022) "موسيقى العبيد" صرخات الجذور خلف المحيطات، <https://diffah.alaraby.co.uk/diffah/arts/2022/2/27>

فريكلان (2013)، بنت السلطان البوم لاله ميرا <https://genius.com/Frecklane-bent-soltan-annotated>

رحلة المعرفة (2021) شكون هي اللاله ميرة شلحة عربية وصحراوية مولة الكرسي ميرا، <https://youtu.be/zlNVgrMeFtY?siyl9n2Ns6lQLNtSmj>